الصباح الإسلامية
09
إعداد : ياسر السيد
العدد 2236 - السنة الثامنة
الثلاثاء 26 شوال 1436 - الموافق 11 اغسطس 2015
Tuesday 11 August 2015 - No.2236 - 8th Year

يهتم ينبغي أن يستحضر المسافر النية الطيبة بالسفر والنزهة

السياحة في الإسلام .. مفاهيم وآداب

كلما أقبلت الإجازة الصيفية تتنوع اهتمامات الأفراد والأسر في قضائها، وكثيرًا ما يغلب جانب السياحة على غيره، فلهذه الأهمية جاءت هذه الكلمات مجلية معنى السياحة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومجلية لمفهومها عند الناس، ومذكرة بأهم آدابها، نفع الله بها.

السياحة في اللغة:

جاء في اللسان(1): مادة «سيح» السَّيْحُ: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأرض.

وقال الأزهري في التهذيب(2): الماء الظاهر على وجه الأرض وجمعه سُيُوح وقد ساح يَسيح سَيْحًا وسَيَحانًا إذا جرى على وجه الأرض وماءٌ سَيْح وخيل إذا جرى على وجه الأرض وجمعه أسياح.

السياحة في الشرع:

وردت السياحة في الشرع بمعان عدة:

السياحة بمعنى الصيام:

وهذا القول مأثور عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهم.

قال الله تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)(3).

وقال الله تعالى: (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)(4).

فالسفر لطلب العلم قربة من أعظم القرب عند الله تعالى وذلك لما للعلم من فضل عظيم عند الله، يقول الله تعالى في تعظيم أولي العلم: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(8)، وقال عز وجل: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ)(9).

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون أهمية طلب العلم وفضل ذلك، وكذلك فضل السفر في طلب العلم فتمثلوا ذلك وخرجوا في طلب العلم. «فقد رحل جابر بن عبدالله من المدينة مسيرة شهر في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه عن عبد الله بن أنيس»(10).

وعن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئت لحاجة. قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(11).

فطالب العلم يخرج متوخيًا مقصدًاساميًا وسياحة من أروع ما تكون، كيف! والملائكة تضع له أجنحتها رضى بما يصنع، فسياحة طالب العلم، وخروجه ورحلته في طلب العلم هي عبادة، بل هي من أفضل العبادات، وفي هذا يقول الله تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)(12).

قال الشعبي: لو أن رجلًا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع(13).

السياحة بمعنى السير والانتشار في الأرض:

جاء في معجم الوسيط(14): السياحة التنقل من بلد إلى بلد؛ طلبا للتنزه أو الاستطلاع والكشف.

وقال ابن سيده(15): قال صاحب العين [يعني: الخليل بن أحمد]: «السياحة -ذهاب الرجل في الأرض للعبادة».

وهذه الكلمة عرفت قديما عند بني إسرائيل، فالسياحة عندهم هي الذهاب في الأرض والانقطاع عن الناس والتعبد والتزهد والترهب في الصوامع، في رؤوس الجبال، في الكهوف، في الصحارى والبراري بقطعون عن الناس.

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد(16). لقيه ابن الدغنة(17) -وهو سيد القارة- فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة إن مثلك لا يخرج ولا يخرج فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلادك... الحديث»(18).

وثبت عند الترمذي في جامعه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من غزوة، أو حج أو عمرة، كان مما يقول في دعائه: «أيبون تائبون عابدون سائحون لربنا حامدون....» الحديث(19).

وفي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي...»(20).

وقال الله تعالى (وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)(21).

وهذه السياحة التي عُرفت عن بني إسرائيل -وأخذها عنهم كثير من الصوفية-: هي التي استأذن الرجل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة السابق؟ فمنعه منها، وقال: «سياحة أمتي: الجهاد في سبيل الله»(22). وهي التي لم يأذن النبي صلى الله عليه وسلم فيها للرجل، وهي التي أنكرها السلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(23): وأما السياحة التي هي: «الخروج في البرية من غير مقصد معين»: فليست من عمل هذه الأمة؛ ولهذا قال الإمام أحمد: «ليست السياحة من الإسلام في شيء» ولا من فعل النبيين ولا الصالحين» مع أن جماعة من إخواننا قد ساحوا السياحة المنهي عنها متأولين في ذلك، أو غير عالمين بالنهي عنه من الرهبانية المبتدعة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «لا رهبانية في الإسلام....».

وبمعنى السياحة: قول الله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)(24).

ولقد أنكر الله على من فقد هذا الإحساس عند سياحته فقال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(25).

قال ابن سعدي رحمه الله: «(السَّائِحُونَ) فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم. وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام. والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك(26).

- وإذا عرف مفهوم السياحة، فقيما مضى من الآيات والأحاديث ما يرفع من شأنها، وقيمتها ومفهومها؛ فقسرت السياحة بالصيام: لما فيه من امتناع الصائم عن الأكل والشرب تشبيها بالسائح الذي قد لا يتوفر له الأكل في كل وقت وحين.

- وفسرت بطلب العلم لما مضى من كون طلاب العلم يسيرون مسيرة الشهر في طلب الحديث الواحد، فخروجهم ودخولهم: سفر وسياحة.

- وفسرت السياحة بالجهاد في سبيل الله تعالى، فالمجاهد يخرج ليذود عن حياض الإسلام، ويحمي أرض المسلمين.

- وقد وردت السياحة بمعنى السير والانتشار في الأرض كما في الآيات السابقات، ومنه قوله تعالى: (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)(27).

فمفهوم السياحة في ما مضى هو الخروج والسير في طاعة الله أو فيما يشبه ذلك.

وهذا المفهوم لكلمة السياحة من الخروج والانتشار في الأرض طاعة لله تعالى ما زال قائما بحمد الله إلى هذا العصر، وإلى يومنا هذا.

وقوافل الحجاج، والمعتمرين القادمين من شتى بقاع الأرض سالكين كل فج عميق، لم يتركوا وسيلة من وسائل النقل التي توصلهم إلى بيت الله الحرام في البر والبحر إلا سلكوها، هذه القوافل مازالت قائمة بحمد الله تتلج صدور المؤمنين، وكذلكم مازالت هناك طائفة من طلاب العلم يسيحون في الأرض شرقا وغربا يتفقهون في الدين؛ ليرجعوا إلى أهليهم منذرين دعاة إلى الله تعالى.

ولقد كان السلف يرحلون في طلب العلم والمعرفة ليالي ذوات العدد، فهذا ابن مسعود ا يقول: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه(28).

ولم تزل الساحة الإسلامية بحمد الله تعالى تشهد لكثير من العلماء وطلاب العلم فرغوا أنفسهم للدعوة إلى الله تعالى، فهم يسيحون في البلاد شرقا وغربا يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. مفاهيم معاصرة لكلمة السياحة لقد استخدم لفظ: «السياحة» في هذا الوقت في مفاهيم أخرى ليست ما سبق ذكره، منها:

أولا: الترويح عن النفس، قلم يعد كثير من الناس يفهم من كلمة السياحة إلا ذلك، ولا بأس بهذا المفهوم إن كان السائحون يُروِّحون عن النفس بما يرضي الله لتتقوى على طاعة الله تعالى وعبادته.

ثانيا: وهي عند آخرين بمعنى الاصطياف، بمعنى أنهم يخرجون إلى أماكن معينة متميزة بميزات يحسبونها؛ من أجل أن يقضوا فيها أوقاتهم ويُنسوا أنفسهم كثيرا من المتاعب خلال سنة كاملة مضت. وكل هذا إن وزن بميزان الشرع واتقى العبد ربه في كل ذلك، ولم ينتهك حرمات الله تعالى، فإنه ما زال في المشروع من السياحة إن شاء الله.

ثالثا: وهي عند آخرين بمعنى الخروج عن القيود الشرعية أو العُرفية. وللأسف فإنه يوجد قام من المسلمين، لا يفهمون السياحة إلا بهذا المفهوم، على الرغم من أن أحدهم قد يكون متمسكا بالشرع في بلده، فإذا جاء وقت الإجازة التي تكون فيها السياحة استحضر هذا المفهوم، وطبّقه في سفره، ونسي أوامر الشرع، وكأن الدين عباءة ليسها في مكان ما من الأرض في وقت من الأوقات ثم نزعها ليرد تلك العباءة فيليسها بعد شهر أو شهرين.

وهذا المفهوم للسياحة: استفز عند الكثيرين!

غير أن كثيرًا من المسلمين -المحافظين-. يقدمون عليه؛ جهلا لحقيقته، وغفلة عن أخطاره، فيندفعون وراء الرائجين؛ قصد السياحة وراحة النفس، والاصطياف، فيجد كثير منهم نفسه في وسط الوحل، وقد يكون مثقلا بالعائلة، وحينئذ قد يحاول الرجوع فلا يملك إلى ذلك سبيلا.

والحق: أن السياحة في الأرض من أجل التأمل في عجائب الكون، والأصناف المختلفة من مخلوقات الله، والترويح عن النفس؛ فإن ذلك مما يزيد العبد معرفة بربه عز وجل ويقينا بأن لهذا الكون مدبرا لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

ومن هنا نذكر:

بعض مجالات السياحة التي ينبغي للمسلم أن يتعامل معها:

فلا يظن أن السياحة مقصورة على المعنى السلبي، بل لها معان إيجابية كثيرة، ومنها:

- الذهاب للعمرة إلى بيت الله الحرام أو زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»(29).

- وكذلك السفر إلى الوالدين وصلة الأرحام والأقارب.

- وزيارة العلماء والصالحين في الله تعالى.

- وإجابة دعوات الأفراح والمناسبات التي ليس فيها منكرات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»(30).

- وكذلك السفر لأجل الدعوة إلى الله. قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)(31). وقال صلى الله عليه وسلم: «فوالله لئن يهدي الله بك رجلا خير لك من حُمْر النعم»(32).

- وكذلك الترويح عن النفس بما أباح الله لها هو مسرح للاستئناس البريء الخالي من الصخب، يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لحنظلة بن عامر ا: «ولكن ساعة وساعة»(33)، لا كما يقول بعض الناس: «ساعات لك، وساعة لربك»، أو «استعن بالهزل على الجد، والباطل على الحق»، أو «دع ما لله لله، وما للقيصر لقيصر» فتلك مقولات خاطئة، فالفرد والبيت والمجتمع والإعلام كلهم خاضعون لحدود الله، ومتى جاوزوا تلك الحدود؛ فما قدروا الله حق قدره، وما شكروه على آلائه. لأن المرء الجاد الخائف من ربه وولي نعمته ليس لديه متسع من الوقت أو الجهد لينفقه فيما يعود عليه بالوبال.

فالعباد ينبغي أن يكون محياهم ومماتهم لله، وليعلموا أنه ما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد، يكتب عليه كل شيء في سفره ومقامه، وكل عبد مجزي بعمله؛ إن عمل خيرا فسيجد عند الله خيرًا أعظم منه - والله لا يضيع أجر المحسنين، ولا يظلم مثقال ذرة-، وإن عمل شرا فإن الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

ولا بأس أن تكون السياحة بهذا المفهوم في هذه الحدود.

والأفضل -الذي تؤمن معه البوائق- أن تكون في ربوع بلادنا، مع الحذر الحذر أن تكلب المفاهيم وأن تكون صورة التنشيط السياحي مثالا للهو والعبث والضجيج والعزف والطرب، وبذل الوقت والمال فيما حرم الله ورسوله.

آداب السياحة

لما كانت السياحة جزءًا من إجازتنا الصيفية لأي غرض من الأغراض المباحة التي مضى التحدث عنها، فيجدر بنا أن نذكر شيئا من آداب السفر:

أولا: أن يستحضر المسافر النية الطيبة بالسفر والنزهة، بأن ينوي التقوي على طاعة الله تعالى، والتوسعة على الأسرة، وإدخال السرور عليهم، والتمتع بإجازتهم، فيكون السفر واحدا من برامجهم وليكن سفره سفر طاعة لله عز وجل.

ثانيا: الاستخارة، لما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هَمّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به. قال ويسمي حاجته»(34)

■ السفر لطلب العلم قربة عند الله تعالى وذلك لما للعلم من فضل عظيم

■ ينبغي للسائح أن يتخير لمرافقته من يشاكله ويوافقه على غرضه ومطلبه

قصة آية

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) المجادلة.

قصة هذه الحلقة سوف نتلقاها لكم من حجرة النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان جالسا صلى الله عليه وسلم في بيته ومعه عائشة رضي الله عنها فإذا بالباب يطرق وإذا بصحابية من الصحابيات الكرام رضي الله عنهن تطرق الباب فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وشكت إليه حالها مع زوجها وسوف نتوقف مع هذا الموقف من النبي صلى الله عليه وسلم كيف استمع إلى هذه المرأة وتتعرف على هذه المرأة.

هذه أول سورة المجادلة وهي أول الجزء الثامن والعشرين ومنها يبدأ الجزء وقصتها عجيبة هذه الآية. النبي صلى الله عليه وسلم كان مع عائشة رضي الله عنها فإذا بخولة بنت ثعلبة تطرق الباب، فلما فتح الباب لخولة رضي الله عنها وهي صحابية وزوجها أوس بن الصامت صحابي جليل وكبرت خولة رضي الله عنها في السن لكن حصل بينها وبين أوس خلاف فقال لها كلمة قال لخولة: أنت علي كظهر أمي. وهذه عبارة يسمونها عبارة الظهار وهو أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي. فكما أن أمي محرّمة علي فأنت محرّمة علي. وهي أشبه ما تكون بتعليق لا هو بطلقها ولا هو يبقيها في عصمته وإنما يبقيها ولكنه لا يقربها ويهجرها. فخولة رضي الله عنها شعرت بالإهانة من هذا الموقف بعدما كبرت سني ورق عظمي وكما قالت: نثرت له بطني يقول لي هذا الكلام! فذهبت خولة رضي الله عنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولاحظ كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يلجأون إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى في القضايا الاجتماعية البسيطة. من هو الآن من الرؤوساء أو من الملوك الذي يحل القضايا الزوجية أو المشاكل بين الأبناء؟! النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائد هذه الأمة وهو الرسول الذي يتلقى الوحي من السماء وبالرغم من ذلك يستقبل مثل هذه القضايا الأسرية. ولذلك الإخوة الذين يستقبلون القضايا الأسرية ويحلون مشاكل الناس قدوتهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فهو كان يستقبل مثل هذه القضايا يسعى بالصلح بين الزوج وزوجته لأن هذه من أعظم القربات. فعائشة رضي الله عنها في طرف البيت وخولة رضي الله عنها جلست عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله، أوس نثرت له بطني وأبليت له شبابي ثم قال لي أنت علي كظهر أمي. وفي بعض الروايات قال: إن لدي أطفال إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا، قضية مشكلة من كل ناحية!. قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث في صحيح البخاري قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات والله لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت - عندما تقول بين رسول الله، بيت عائشة، يظن الناس أننا نتحدث عن قيلولا أربعين في أربعين أو ثلاثين في ثلاثين أو دورين؟ لا، كانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم حجرات صغيرة إن كانت واسعة فهي ربما لا تصل ثلاثة متر في ثلاثة متر لأنه لو كانت كذلك ما كانت عائشة رضي الله عنها تكف رجلها حتى يسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم تمد رجلها في قيامه لأن الغرفة كانت ضيقة وهي نائمة على فراشها وهي ويصلي في الحجرة فتكف رجليها حتى يسجد ثم تعيدها فهذا دليل على أنها ضيقة. ولذلك الذين كتبوا في حجرات النبي صلى الله عليه وسلم وفي بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وفي تاريخها يتحدثون عن غرف ضيقة جدا فعائشة رضي الله عنها في طرف من الغرفة الضيقة وخولة في الطرف الآخر. فتقول عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات مما يدل على أن خولة كانت تتحدث بهدوء وإنني أسمع كلام خولة وبعضها لا أسمعه وبالرغم من ذلك يقول الله سبحانه وتعالى (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا).

من آيات الله عز وجل المعجزة

« فلا أقسم بمواقع النجوم »

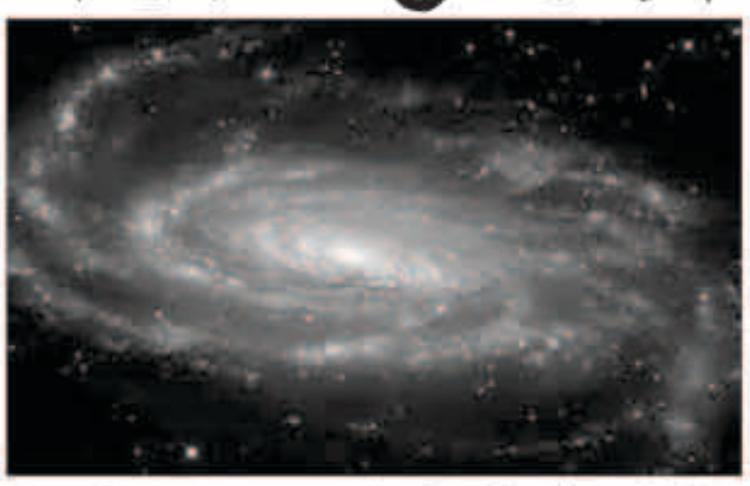

أقسم سبحانه وتعالى في سورة الواقعة بمواقع النجوم، وقال: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ×وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ×إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ × فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ × لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ.(1)

تفسير الآيات المراد من مواقع النجوم مساقطها حيث تغيب.

قال الراغب: الوقوع ثبوت الشيء وسقوطه، يقال: وقع الطائر وقوعا، وعلى ذلك يراد منه مطالعها ومغاربها، يقال: مواقع الغيث أي مساقطه.(2)

ويدل على أنّ المراد هو مطالع النجوم ومغاربها أن الله سبحانه يقسم بالنجوم وطلوعها وجريها وغروبها، إذ فيها وفي حالاتها الثلاث آية وعبرة ودلالة، كما في قوله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ × الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (3) وقال: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى وقال: فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ويرجح هذا القول أيضًا، أنّ النّجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب، كقوله تعالى: وَإِنْبِيَارِ النُّجُومِ(4)صح، وقوله: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ(5)).

وأمّا المقسم عليه: فهو قوله سبحانه: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ × فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ × لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وصف القرآن بصفات أربع:

أ: (القرآن كريم)، والكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كلشيء أحسنه وأفضله، فالله سبحانه كريم، وفعله أعني القرآن مثله.

وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، فالله كريم يحمد فعاله، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

ب: (في كتاب مكنون) ولعل المراد منه هو اللوح المحفوظ، بشهادة قوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ × فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ.(6) ويحتمل أن يكون المراد الكتاب الذي بأيدي الملائكة، قال سبحانه: فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ × مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ × بِأَيْدِي سَفَرَةٍ × كِرَامٍ بَرَرَةٍ.(7)

ج:لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ فلو رجع الضمير إلى قوله: لقرآن كريم، كما هو المتبادر، لأن الآيات بصدد وصفه وبيان منزلته فلا يمس المصحف إلا طاهر، فيكون الاخبار بمعنى الإنشاء، كما في قوله سبحانه: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ.(8)

ولو قيل برجوع الضمير إلى (كتاب مكنون) فيكون المعنى لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، وربما يؤيد هذا الوجه بأن الآية سيقت تنزيها للقرآن من أن ينزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه، فلا يمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، قال تعالى: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ × وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ.(9)

د: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وهذا هو الذي يركز عليه القرآن في مواقف مختلفة، وأنه كتاب الله وليس من صنع البشر.

وأما الصلة بين القسم والمقسم به: فهو واضح، فلأن النجوم بمواقعها أي طلوعها وغروبها يهتدي بها البشر في ظلمات البر والبحر، والقرآن الكريم كذلك يهتدي به الإنسان في ظلمات الجهل والغي، فالنجوم مصابيح حسية في عالم المادة كما أن آيات القرآن مصابيح معنوية في عالم المجردات.

وإكمال إنه سبحانه قال: فلا أقسم بمواقع النجوم فالمراد منه القسم بلا شك، بشهادة أنه قال بعده: وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ فلو كان معنى الآية هو نفي القسم فلا يناسب ما بعده حيث يصفه بأنه حلف عظيم، وقد اختلف المفسرون في هذه الآيات ونظائرها، إلى أقوال:

1. «لا» زائدة، مثلها قوله سبحانه: لِئَلَّا يَعْلَمَ.

2. أصلها لأقسم بلام التأكيد، فلما أشبعت فتحتها صارت «لا» كما في الوقف.

3. لا نافية بمعنى نفي المعنى الموجود في ذهن المخاطب، ثمّ الابتداء بالقسم، كما تقول: لا والله لا صحة لقول الكفار، أقسم عليه.

ثمّ إنّه سبحانه يصف هذا القسم بكونه عظيما، كما في قوله و انّه لقسم لو تعلمون عظيم، فقوله: عظيم وصف القسم آخر لحفظ فواصل الآيات.

وهذا القسم هو القسم الوحيد الذي وصفه سبحانه بأنه عظيم، فالحديث هنا هو حديث على الأبعاد، أبعاد النجوم عنا، و عن بعضها البعض، في مجرّتنا، وفي كل المجرّات، ولأنها كلها تتحرك، فإن الحديث عن مواقعها يصير أيضا حديثا على داراتها، وحركاتها الأخرى العديدة، وسرعاتها، وعلى علاقاتها بالنجوم الأخرى، وعلى القوى العظيمة والحسابات المعقدة، التي وضعت كل نجم في موقعه الخاص به وحفظته، في علاقات متوازنة، دقيقة، محكمة، فهي لا يعتريها الاضطراب، ولا تتغير سننها وقوانينها، وهي لا تسير خبط عشواء أو في مسارات متقاطعة أو متعارضة بل هي تسير كلها بتساوق وتناغم وانسجام وانتظام تامّين دالين، آيات على قدرة القادر سبحانه. (10)

يقول الفلكيون: إنّ من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أيّ احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم كوكب بآخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد وبعيدا جدا، إن لم يكن مستحيلا. (11)